الوضع الحقيقي لمشكلة:

جابر بن حيـــان

للأستاذ أحمد زكى صالح

تقرير الأستاذ برثلو Berthelot

وبرثلو هذا هو أول من تعرض لبحث مشكلة جابر بن حيان على منهج علمى منظم ، وذلك فى ثنايا عرضه لتاريخ الكيمياء فى كتابه La Chemie de Moyen Age، حيث يعرض برثلو منهجه قائلاً : « ولكى نجزىء هذه المشاكل العسيرة ، ونعين بها مشاكل كتب جابر بن حيان ، التى تعانيها هذه المرحلة العلمية ، فإن الدراسة المباشرة للنصوص أو للتراجم اللاتينية تفيدنا أكثر إفادة ، ولكن هذه الدراسة النقدية لا تكفينا تماماً ، إذ أنه يبدو لى أنه من الضرورى أن نستعين بدراسة المؤلفات العربية نفسها ، وأن نقارنها بالنصوص اللاتينية المعروف أنها ترجمة لها . ولكن هذا ليس بالأمر اليسير ، ذلك لأن معظم النصوص العربية فقدت فى ركاب الدهر ، ولكن يوجد بعضها فى المكاتب الأوربية مثل ليدن وباريس ، وإن نشر هذه المخطوطات من الضرورة بمكان كبير ، حتى تتم الدراسة المقارنة ذات الأثر الفعال فى تاريخ العلوم . وحتى يتيسر لنا أن نضع تاريخ الكيمياء فى وضعه الصحيح[1] »

ثم بعد أن [illegible] برثلو كتب جابر بن حيان التى لا يشك فى أنها من تصنيفه يقول :

يسمح لنا تحليل هذه الكتب بأن نكون الفكرة العامة لميزات جابر ، وأن نتبين كيف أن هذه الكتب ترتبط ارتباطاً مباشراً مع عدد معين من الأفكار والآراء والنظريات التى تبسط فى التراجم اللاتينية للكتب العربية مثل كتب أفلاطون وأرسطو والرازى وابن سينا وغيرها من الآراء والنظريات التى إنتقلت عن طريق الكيمياء العربية إلى الكيمياء اللاتينية فى القرن الرابع عشر من الميلاد . وفى حركة النقل هذه ظهرت قيمة جابر بن حيان وكيف عُد أستاذ الكيمياء فى الإسلام

ويمكن أن ترد بعض هذه النظريات إلى أصول يونانية ، ولكن الأعمال العربية لجابر تختلف تماماً من حيث عرض الأفكار وأسلوب البحث ومنهجه أو إثبات الظواهر ووضوح النظريات عن تلك الكتب التى ألفها منتحل اسم جابر Psuedo - gébèr ليس فقط فى أن الظواهر الجديدة التى يشرحها هذا المؤلف كانت مجهولة تماماً عند العرب بل إنه من المستحيل أن نجد فى المؤلفات التى تحمل اسم جابر Gébèr فى اللاتينية صفحة حتى ولا فقرة يمكن أن تعتبر ترجمة لنص عربى

ولكن هذا كله لا يمكن أن يقلل من شأن الكيمياء العربية التى أثارت تاريخ العلوم إثارة كبيرة إذ أنه عن طريقها أمكن معرفة تاريخ الكيمياء عند المصريين واليونان ثم فى بزنطة وعند السريان ، ثم عند العرب أنفسهم[2]

ثم إن كتاب الـ Summa لايحتوى أى دليل يشير إلى أصله العربى سواء فى منهجه أو فى حقائقه أو فى كلماته أو الأشخاص المذكورين فيه ، ولا فى الخرافات الإسلامية التى هو خلو منها تماماً

وليس شكى فى أن كتاب السوما Summa قد أُلف قبل القرن التاسع بأقل من شكى فى أنه لا يوجد ثمة أصل عربى هو ترجمة له فى مثل هذا التنظيم البديع وتلك الإبانة الوافية . إذ أن مؤلفات

(١) Traité d'alchemie arabe V. III. P. 8.

(٢) نفس المصدر السابق ص ٢٣ — ٢٤

والإحاطة بما فيها ، فإذا بالذى فيها كنز لا يفنى ، ككل كنز فى كل نفس ، غير أن هذا كنز مفتوح لم تتكدس عليه الأكاذيب والأباطيل

فليس عجيباً بعد هذا أن تتاح صحبة من الفنون الجميلة للفنان الذى نفسه هى هذه النفس ، فيكون أديباً وممثلاً ومغنياً وراقصاً وملحناً وغير ذلك

وإذا كان الفرد يقلد وينجح فى التقليد نجاحاً خفيف الروح بهيج الظل لأنه يتطلع إلى غيره ، فإن للانسان أن يكون فناناً إذا تطلع إلى نفسه وهى أقرب إليه من غيره .

هزيز أحمد فهمى

جابر العربية وأبحاث ابن سينا لا يمكن أن تملى علينا التسليم بأن كتاب السوما Summa ترجم عن أصل عربي

ونحن لا ننكر أن بعض العبارات قد اقتبست من مؤلفات جابر العربي، الذى لا زال وجوده غ .ى. ولكن على الرغم من ذلك لا نستطيع أن نقول بإمكان ان يكون مؤلف هذا السفر الجليل عربياً مُسلماً ، إنما الافتراض الذى يبدو لى معقولاً هو أن مؤلفاً لاتينياً لا زال مجهولاً لنا تماماً كتب هذا الكتاب فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر من الميلاد ونسبه إلى جابر كما فعل الكيميائيون اليونان فى مصر الذين وضعوا اسم ديمقريطس على مؤلفاتهم كى تشتهر وكما فعل الكيميائيون السريان فى نحلهم مؤلفاتهم لديمقريطس كذلك

وقصارى القول إذن أن المؤلف اللاتينى Psuedo - gébèr «المدعى الجابرية» قد احتل مكانة سامية فى العالم الكيميائى بفضل وضوح منهج الـ Summa وبامتيازها عن غيرها من المؤلفات العربية البحتة حتى صار هذا المؤلف فى القرن الرابع عشر من الميلاد أساس الدراسة الكيميائية فى العالم أجمع ، ولكن نسبة هذا الكتاب للعرب أنفسهم أفقد كل تاريخ العلم لمنحه لهم هذه القدرة العلمية الإيجابية التى ما وجدت لديهم يوماً ما »[1]

مناقشة تقرير برتلو

يرى الأستاذ برتلو أن وضوح كتاب السوما Summa وأسلوبه وتنظيم أبوابه وقوة نظرياته ومنهجه الخاص تكفل لهذا السفر الخروج عن دائرة التأليف الإسلامية ، والدخول فى دائرة التأليف اللاتينية ، ولكن لِمَ لا يكون جابر هو الذى كتب هذا المؤلف ، بالعربية طبعاً، فى أخريات حياته، بعد أن اكتمل له حظ كبير من المعونة العلمية ومن الآراء والنظريات السابقة له؟ ولكن هبنى سلمت بأن جابراً لا يعرف التنظيم فى مؤلفاته، وهذا بعيد جداً، فلم لا يكون هذا التنظيم وذاك الأسلوب اللذان ركز عليهما برتلو نقده الطويل، من عمل المترجم ؟ وكل ما هنالك أن هذا السفر الكيميائى كان حظه أوفر من حظ غيره من الكتب ، إذ وُهب مترجماً ميالاً للأدب ، ضليعاً فى لغته ، فاهماً تمام الفهم ما هو فى سبيل ترجمته . وأؤكد أن هذه الأمور لو توافرت فى أى مترجم لخرجت الترجمة

(١) راجع Berthelot : Traité d'alchemie arabe

وهى تضارع الأصل فى وضوح الفكرة وجمال العرض

فالأساس الذى يعتمد عليه برتلو فى نقده كتب جابر بن حيان أساس خاطئ ، حظ الشك فيه راجح على حظ اليقين . ونحن نكتفى بأن نسأل سؤالين :

أليس من اليقين القاطع أن أعمال جابر العربية التى فى متناول أيدينا تدل على نبوغ وعبقرية ؟! ولم لا تكون هذه الكتب اللاتينية الأربعة التى سبق أن أشرنا إليها فى بدء المقال ، قد ترجمت عن أعمال أخرى لجابر بن حيان ؟

أما السؤال الأول فإن برتلو يسلم بأن الكتب العربية لجابر ابن حيان تدل على نبوغ وعبقرية

ولقد لاحظ الأستاذ رسكا Ruska ، خليفة برتلو فى الاهتمام بمشكلة جابر بن حيان ، أن عملين من المؤلفات التى نشرها برتلو إنما تدل على سمو وامتياز ، وعلى عقلية نامية نابغة

أما السؤال الثانى : فإن إجابة برتلو عليه كما سبق أن بينا ، لا تلزم الباحث بضرورة الاقتناع برأيه

وعلى ذلك فإن القول بأن هناك أسباباً وجيهة جعلت كيميائياً لاتينياً ينسب أعماله لجابر بن حيان لشهرته التى لم تأت فقط عن طريق التراجم العربية كمذكراته ورسائله ، إنما كذلك من طريق التراجم اللاتينية لبعض المؤلفات العربية لجابر بن حيان الدالة على نبوغ وعبقرية ، والتى أكثرها أهمية بدون شك هو كتاب السبعين الذى نشره برتلو وهوداس Haudas فى سنة ١٩٠٣ حسب مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس

ولما كان من المستحيل أن يكون لدينا رأى جازم فى مستوى الأسلوب العلمى فى ذلك الوقت فإنه ليس من الممكن أن نسلم بأن كتباً كتبت على أسس جديدة غير الأسس القديمة ليست من أعمال جابر بن حيان

ونحن لا نكتفى هنا ببيان استحالة صحة رأى برتلو من الناحية الأسلوبية فقط ، إنما كذلك تحت أيدينا من النصوص ما يثبت قطعاً أن رأى برتلو فى معالجته لمشكلة جابر بن حيان من الناحية الموضوعية خاطئ كل الخطأ كذلك

والآن فلنقارن بعض النصوص اللاتينية التى يذهب برتلو أن جابراً لم يفطن إلى معانيها ، أو إلى التجارب التى تشرحها، ببعض النصوص المسلم بأنها من عمل جابر بن حيان ، من جميع العلماء المستشرقين :

أولاً : كتاب الاستتمام ، هذا الكتاب ذكر فى الفهرست لابن النديم ، ويذهب المستشرقون إلى أن هذا الكتاب ، أعنى ترجمته باللاتينية التى نقلت بدورها إلى الإنجليزية تحت عنوان Book of seaich of Perfectoin إنما هى منسوبة إلى جابر بن حيان انتحالا ، ويذهب برثلو إلى أن هذا الكتاب يحتوى على نظرية الكبريت Sulphur mécury التى لم يحاول العرب التفكير فيها . ونحن الآن نقتطف نصاً من هذه الترجمة اللاتينية ونصاً آخر من كتاب لجابر بن حيان بالعربية وهو « الإيضاح » ونرى بعد ذلك هل حقاً يوجد تباعد بين الفكرتين ؟

يقول كتاب Book of Seaich of Perfection ما ترجمته « تتركب جميع المعادن من أصل واحد هو الكبريت سواء كان نقياً أم لم يكن »

ويقول كتاب «الإيضاح» (مخطوط بدار الكتب بالقاهرة): «تتكون جميع الأجسام المعدنية فى جوهرها من الكبريت الممتزج مع الزئبق ... وإنها إن يختلف بعضها عن بعض فما ذلك إلا لسبب اختلاف خواصها العرضية »

فأين إذن هذا التباعد بين النظريتين ؟

ثانيا : كتاب السوما Summa أى الجمع :

ولعل هذا البرهان الذى سنسوقه الآن هو الذى سيضع المشكلة فى وضعها الصحيح ، فمقدمة الكتاب اللاتينى ترجمت عن العربية ، إذ جاء فيها ما ترجمته «إن ما ذكر غير كامل فى كتبنا السابقة قد أكملناه فى كتابنا هذا »

وهذا ما يتفق تماماً وملاحظات جابر وتعليقاته فى أنه قد فرّق براهينه فى كتب مختلفة . وهو قد قال : « إن البحث ينبغى أن يُعمل بالشكل الذى يوافق الطبيعة » ؛ كما يذكر أن الكيميائى يريد أن يقلد الطبيعة بوسائل مصطنعة . كما يذكر أيضاً أن الكيميائى ينبغى أن يكون مجتهداً فى عمله مواظباً على الوصول إلى نتيجة نهائية ، وألا يسلم لنتائج سريعة وظواهر خداعة

فى كتاب الجمع Summa ، أتى ذكر عملية التكليس فى الفصل الرابع عشر ؛ فبالرغم من أن التعاليم والأوصاف التى أعطاها جابر اللاتينى فى وصفه لجهات التجربة وخطوات العمل فيها تتفق تماماً مع تلك التى قال بها جابر بن حيان فى كتاب الخواص ، الذى لا يشك أحد أنه من عمل جابر ، فإن الأستاذ برثلو يعترف بأن عملية التكليس هذه لا نظير لها فى الكتب العربية ، ولكن من حسن الحظ ، أو من سوئه ، لا أدرى ، أن جابر بن حيان قد أفرد كتاباً لهذا الموضوع فقط هو كتاب « التكليس » ، ولا يشك أحد أنه من عمل جابر بن حيان

فلنقارن النصوص ، ونتركها تتكلم :

جاء فى كتاب الجمع Summa فى النص اللاتينى ما ترجمته : « التكليس هو تأكسد المادة بواسطة التسخين ، وذلك أنه يسلب الماء والرطوبة منها فتتجمع أجزاؤها ، والسبب فى ذلك هو أن تجفيف الكبريت وتلوينه وإفساده يمكن أن تمنع بواسطة التسخين ، ولكن هذا المنع يختلف باختلاف الأشياء المتكلسة إذ أن الأجسام تتكلس كما تتكلس الأرواح ، ولكن رغم ذلك توجد بعض الأشياء الخارجة عن طبقة هذه وتلك ... [1] »

وقد جاء فى كتاب التكليس لجابر بن حيان : «الغرض من تكليس المعادن هو إزالة عدم صفائها وعدم نقاوتها »

« وكل معدن يكلس بطريقة تختلف عن الطريقة التى يكلس بها معدن آخر ، ذلك لأنه يوجد بعض المعادن النقية الصافية بطبعها وفى هذه الحالة يكون الغرض من التكليس هو تحويل المعدن إلى مسحوق نهائى . أضف إلى هذا كله أن الحقيقة القائلة بأنه إذا طرقت الفضة حتى صارت صفائح رقيقة ثم سخنت بعد ذلك فى درجة الحرارة الملائمة يمكن سحقها بعد ذلك مباشرة كالزجاج تماماً ، ثم إذا صهرت مع البورق Borak ، ترجع ثانياً إلى حالتها الأولى أى على صورة سبائك غير مطروقة». أقول إن هذه الحقيقة إنما وجدت فى كتاب الخواص قبل غيره من الكتب ، وهو كتاب لا يمكن أن يتطرق شك إلى أنه من عمل جابر بن حيان

وآية ذلك كله أن محتويات الكتب اللاتينية لها شبيه فى محتويات الكتب العربية إن لم نقل إنها هى نفسها ، وهو القول الأقرب إلى الحقيقة والصواب

« يتبع »

أحمد زكى صالح

* * *

وقعت بعض أخطاء مطبعية فى المقالة السابقة نكتفى بالاشارة إلى صحيحها : هامش ص ١٢٠٥ — العمود الثانى : (١) ذكر رسكا فى مقاله فى Islamic culture 1937 ، وفى هامش ص ١٢٠٦ — العمود الأول : (١) من مقال له فى Legacy of Islam

(١) يلاحظ أن النظرية غريبة بعض الشىء ، وذلك لأنها نظرية مر عليها الآن ستة قرون